المحاضرة السادسة : الاحتجاج بالشعر والنثر

الاستشهاد بالشّعر:

قسم العلماء الشعراء إلى طبقات أربعة:

-طبقة الجاهليين: كزُهير وطَرفة وامرئ القيس وعنترة والنابغة وغيرهم.

-طبقة المخضرَمين، وهم الذين شهِدوا الجاهلية والإسلام: كحسان ولَبيد والخنساء وكعب بن زهير.

-الإسلاميين، وهم المتقدِّمون الذين كانوا في صدر الإسلام: كجَرير والفرزدق والأخطل.

-المولَّدين، ويقال لهم المُحدَثون، وهم مَن بعدهم إلى زماننا: كبشَّار وأبي نُواس.

فالطبقتانِ الأُوليان يستشهد بشِعرهما إجماعًا، وأما الثالثة فالصحيحُ صحةُ الاستشهاد بكلامها.

وقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبدالله بن إسحاق والحسَن البصري وعبدالله بن شبرمة يُلحِّنون الفرزدق والكُميت وذا الرمة وأضرابهم في عدة أبيات أُخذت عليهم ظاهرًا، وكانوا يعُدونهم من المولَّدين؛ لأنهم كانوا في عصرهم، والمعاصرة حجاب.

قال ابن رشيق: كلُّ قديم من الشعراء فهو مُحدَث في زمانه بالإضافة إلى مَن كان قبله. وكان أبو عمرو يقول: لقد أحسن هذا المولَّد، حتى لقد هممتُ أن آمر صبياننا برواية شعره - يعني بذلك جريرًا والفرزدق - فجعله مولَّدًا بالإضافة إلى شِعر الجاهلية والمخضرَمين، وكان لا يعُدُّ الشعر إلا من المتقدمين، قال الأصمعي: جلستُ إليه عشر حِجَجٍ فما سمعتُه يحتجُّ ببيت إسلامي.

وأما الطبقة الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقًا، وقد يُستشهد بكلام مَن يوثق به منهم، واختاره الزمخشري؛ فإنه استشهد بشعر أبي تمام في عدة مواضع، وقال: وهو وإن كان محدَثًا لا يُستشهَد بشعره في اللغة، فهو مِن علماء

العربية، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليلُ عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك بروايتِه وإتقانه.

وإذا كان الزمخشري يصرّح بثقته في شعر أبي تمَّام وأضرابه؛ ولذا فهو يستشهد به - فهناك من اللُّغويين مَن استشهد في استخفاء بشعراءَ مِن هذه الطبقة.

ومن هؤلاء: الخليل بن أحمد، الذي استشهد في كتابه العين بحفص الأموي، وبشار بن بُرد.

واستشهَد سيبويهِ في كتابه ببيت لبشار بعد أن توعَّده بالهجاء، وأصحاب بشار يروون له هذا البيت:

وما كلُّ ذي لبٍّ بمؤتيكَ نُصحَه ... وما كلُّ مُؤْتٍ نصحَه بلبيبِ

يقول الجرجاني: إن الشعر علمٌ من علوم العرب، يشترك فيه الطبعُ والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادةً له، وقوة لكل واحد من أسبابه؛ فمَن اجتمعت له هذه الخصالُ فهو المحسِن المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان، ولست أفضِّل في هذه القضية بين القديم والمحدَث، والجاهلي والمُخضرم، والأعرابي والمولَّد.

إن الطرحَ الذي طرحه علماؤنا - رحمهم الله - يفيد نفي اعتبار العصر عاملًا مرجِّحًا للاستشهاد بكلام المتقدمين وطرحِ كلام المتأخرين، كما أنه يثير عدة تساؤلات:

ما معنى تقسيمهم الشعراءَ إلى طبقات؟

ألا يعني هذا التقسيمُ أنهم أدركوا أن لكل طبقةٍ خصائصَ تميزها، وأدركوا أن بين كل طبقة وأخرى فروقًا؟

ثم هل يمكن أن تكون طبقة المولَّدين إلى زماننا هذا طبقةً واحدة في خصائصها اللغوية؟ ألا توجد فروق تميِّز كل عصر من غيره؟ ألم تحدُثْ هِزَّات اجتماعية وسياسية واقتصادية تؤدي إلى تغيُّر في دلالات المفردات والتراكيب اللغوية؟

ثم ما معنى أن الطبقةَ الرابعة لا يُستشهد بشِعرها مطلقًا؟

إن ما فعله العلماءُ مِن هذا التقسيم يسلِّمنا إلى حقيقتين؛ أُولاهما: أن اللغة كانت تتطور في ألسنةِ الأجيال المتعاقبة، وأن العلماء أدركوا بحسِّهم اللغوي، وكان عليهم أن يدرسوه ويبينوا الخصائص المميِّزة لكل جيل، ويرصدوا تحركات التطوُّر المتعاقبة في تُؤَدة؛ حتى نُحسِن استغلالها في خدمة الفصحى.

والثانية: أن إتقانهم الفصحى كان بالمران والدربة، وهذا أمر لا غبار عليه، وإنما فيه ما يؤكد أن اللغةَ لا علاقة لها بالجنس، وإنما هي قابلةٌ للأخذ والتلقي والإتقان.

2/ الاستشهاد بالنثر:

لقد ذكَر السيوطي في كتابيه الاقتراح والمزهر أن أبا إبراهيم الفارابي حدَّد في كتابه الألفاظ والحروف أسماء القبائل التي يُحتَج بكلامها، وأسماء القبائل التي لا يستشهد بما يسمع عنها، فقال: كانت قريشٌ أجودَ العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانةً عما في النفس، والذين عنهم نُقلت اللغة العربية، وبهم اقتُدي، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين كلام العرب، هم: قيس وتميم وأسد؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أُخذ ومعظمه، وعليهم اتُّكِل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هُذَيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم.

وعموما، فإنه لم يؤخذ عن حضَري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائرَ الأمم الذين حولهم.

فإنه لا يؤخذ لا من لخم ولا من جذام؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصرَ والقِبط، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تَغْلِب والنمر؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، ولا من بكر؛ لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس، ولا من عبد القيس؛ لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والحبشة، ولا من أزد عمان؛ لمخالطتهم للهند والفُرس، ولا من أهل اليمن أصلًا؛

لمخالطتهم للهند والحبشة، ولولادة الحبشة فيهم، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وسكان الطائف؛ لمخالطتهم تجارَ الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقُلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.

ومِن خلال النظر في هذا النص، يتبيَّن أن العلماء قد أسسوا فصاحة القبيلة على دعامتين:

الأُولى: مقدار قُرب مساكنها من مكة وما حولها.

الثانية: مقدار توغُّلها في البداوة

وقد سبق الإشارة إلى ذلك أثناء الحديث عن شروط النّقل الصّحيح...